مشاكل تاريخ الدخان والتدخين بالمغرب :

تاريخ استعمال الغلايين الفخارية نموذجا

أحمد أشعبان[1]

إن المتأمل للعنوانين أعلاه يدرك جيدا أن الموضوع عامة ليس من تلك المواضيع التي تسهل معالجتها، خاصة إذا حملت ظاهرة الدخان والتدخين- في علاقتها بأدوات استعمالها وهي موضوع العنوان الثاني - اقتراحات جديدة لتاريخ جديد يختلف عما هو معروف إلى يومنا هذا.

يثير الموضوع مشاكل متعددة على المستوى المعجمي، بحيث تصادفنا مجموعة من المصطلحات تستعمل لنفس الغرض أي التدخين: ومن بينها الدخان والتبغ و الحشيش والكيف، إضافة إلى مجموعة من الأسماء الأخرى أشار إليها الأستاذ محمد حجي : " [...] وسماه بعضهم (أي التبغ) أيضا الطبغ وطابة والطابغة والتوبغة والدخان..." [2] . أما الأدوات المستعملة في التدخين فلا نعرف عنها سوى مصطلح " الغليون" وتجمع على "غلايين"، والكلمة في حد ذاتها تتداخل مع مصطلح يرتبط بالملاحة البحرية ، ويطلق على نوع من السفن يسمى "Galleon". وأما لفائف التدخين، فكانت تصنع من النبات وليس من مادة مختلفة. ولم تظهر السيجارة إلا في أواخر القرن التاسع عشر الميلادي. وفي الثقافة والقاموس الشعبيين نجد بعض المصطلحات التي لا علاقة لها باسم الغليون، وترتبط خاصة باستعمال نبات" الكيف" ومن بينها : " السبسي" و " الشقف " و " المطوي". وكل هذه المصطلحات تحتاج إلى وقفة لفهم السياق التاريخي والاجتماعي الذي أنتجت فيه، ودلالاتها، وضبطها ، إلا أن هذا التعدد والتنوع يبرز بوضوح أهمية البحث في هذا المجال ، وهو أمر لا يتسع له هذا المقال.

---

[1] - أستاذ التاريخ الوسيط وعلم الآثار، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، عين الشق، الدار البيضاء.

[2] - محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التاريخ، مطبعة فضالة، المحمدية، 1977، الجزء 2، ص 246.

وعندما نبحث في المصادر والأبحاث والدراسات التاريخية عن النصوص المكتوبة التي قامت بمقاربة هذا الموضوع أو الإشارة والتطرق إليه، وخاصة بالمغرب، نلاحظ نقصا شديدا، بحيث أن ما كتب عنه لا يشفي الغليل، ولم يتم لحد الآن جمع المادة المتعلقة به من مختلف المصادر العربية أو الأجنبية بشكل علمي. وإذا استثنينا محاولة المرحوم محمد حجي في أطروحته " الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين " التي خصص فيها فصلا كاملا لموضوع "استعمال التبغ" [3] فلا نجد في المقابل، حسب علمنا، أعمالا أخرى يمكن ذكرها في هذا السياق . واعتمد الأستاذ محمد حجي في تناول هذ الموضوع على مجموعة من المصادر المخطوطة التي تعود في معظمها إلى الفترة الحديثة، وعلى فتاوى العلماء خلال العصر السعدي أو الفترة المتأخرة عنه.

وإذا كانت المعلومات المتوفرة في المصادر شحيحة، وغير كافية، فهي تسمح لنا على الأقل بتكوين صورة أولية عن الموضوع، في انتظار دعمها بمادة كافية لتبديد ما يكتنفه من نقص وتضارب أحيانا في الافتراضات المتعلقة ببداية استعماله في المغرب وتطوره وآثاره على المجتمع والفكر.

اختلفت الآراء حول بداية استعمال التبغ والغليون . فبالنسبة للأول، هناك شبه اتفاق بين الباحثين على أن كريستوف كولومبوس هو من نقل بذرة التبغ من أمريكا اللاتينية إلى أوربا أواخر القرن الخامس عشر، وقد وجد السكان في أمريكا يزرعونها ويدخنونها في حفلاتهم الدينية. ولكن مسألة دخول التبغ إلى باقي دول العالم، وتاريخ البدء في استعماله في المغرب ومصر والشرق الأوسط، هي من الأمور التي لم يحصل حولها اتفاق، وتتضارب بشأنها الآراء والروايات. هناك من يرى أن الأوربيين أوصلوا عشبة التبغ إلى إفريقيا ومنها إلى المغرب ومنه إلى باقي الدول العربية بالشرق، ومنهم من يرى أن هذه النبتة وصلت إلى مصر والمشرق العربي مباشرة عن طريق الأوربيين، من دون ذكر لإفريقيا جنوب الصحراء ولا للمغرب، وبهذا فهم يضربون صفحا عن كل ما ورد في المصادر المغربية عن انتقالها إلى المغرب من السودان، وعن دور أبي محلي في ترويجها ونقلها إلى المشرق، وعن الضجة التي صاحبت استعمالها بين المغاربة ما بين مفت بتحليلها ومحرم لاستعمالها بين الفقهاء في الفترة الحديثة. بل إن من الباحثين المصريين من ذهب بعيدا في افتراضاته، وأكد أن نبات التبغ وجد ضمن النباتات التي استعملت في تحنيط جثة الفرعون رمسيس الثاني[4]. ونحن نميل إلى ترجيح ما أكدته مصادرنا

[3] - نفس المرجع والجزء ، من ص 246 إلى ص 266.

[4] - عن مقال نشر بالأنترنيت لجمال الموساوي : http://jamalmoussaoui.com/548300

المغربية عن هذه النبتة / الآفة، لأنها مصادر تعود إلى القرن السابع عشر، وتتحدث عن واقع ملموس، وليس عن افتراضات. يقول الأستاذ محمد حجي في هذا السياق: "[...] دخلت عادة تدخين التبغ إلى إفريقيا السوداء الوثنية عن طريق الأوربيين، ووصلت تمبوكتو في مستهل القرن الحادي عشر / أواخر السادس عشر، ومن ثم حملها السودانيون الذين رافقوا الفيلة إلى مراكش عامي 1005- 1597/1006-1598، ثم دخلوا بها إلى فاس مع الفيلة عام 1007/ 1599"[5] ، كما يقول حول انتقالها إلى الشرق ما يلي : " [...] وفي غمرة الفتن التي أعقبت وفاة المنصور، تجدد رواج التبغ وانتشر أكثر مما كان وبخاصة في الصحراء. ومنها حمله أحمد بن أبي محلي إلى مصر في رحلته الحجازية الثانية عامي 1013-1014/ 1604-1605، فدخل التبغ بذلك لأول مرة إلى بلاد النيل، ومنها انتشر في الشام والجزيرة العربية" [6]. ومن خلال هذا الاستشهاد المعتمد على مصادر مغربية أصيلة، نلاحظ أن مسألة دخوله إلى المغرب وانتقاله إلى المشرق تبدو واضحة .

إلا أن الشق الثاني من موضوعنا وهوالأدوات المستعملة في التدخين، لم يحظ بعناية المؤرخين والمصنفين في الفترة المعنية، بحيث لا نجد ذكرا للغليون ولا لأشباهه من الأدوات في مصادرالفترة الحديثة ولا التي جاءت بعدها، ومن هنا تظهر الحاجة الملحة إلى استكمال هذا النقص بالرجوع إلى ما كتب عنه في المصادر الأجنبية ، وإلى الآثار المادية المتبقية منها.

ولكن مع الأسف لم يحدد لنا حجي أدوات استعمال عادة التدخين .

تؤكد كل المعطيات والنماذج المنشورة، خاصة من دول أوربا وأمريكا، سواء في الكتب أو المجلات أو المقالات والمواد الإلكترونية المنشورة على الأنترنيت، أن ظهور الغليون بدأ في فترة مبكرة لم يحدد تاريخها، وأن الرومان استعملوه لتدخين النباتات الطبية قصد العلاج من بعض الأمراض. وتؤكد هذه الدراسات أن الإقبال على استعماله تزايدا كثيرا في القرن السابع عشر، في أوربا وخاصة في انجلترا التي استعملت فيها غلايين فخارية لأول مرة، ثم تطورت هذه الغلايين فيما بعد، وأصبحت تصنع من الخشب ثم العاج وغيره من المواد. أما بالنسبة للمغرب، فلم يصل إلى علمنا عمل اهتم بدراسة تاريخ الغليون ووصوله إلى المغرب ، واستعماله وأنواعه ومصادر انتقاله إليه.

---

[5] - محمد حجي ، الحركة الفكرية ، ج 2 ، ص 246.

[6] - نفس المرجع والجزء ، ص 247.

لذلك، تظل الدراسة الميدانية، والمعاينة المباشرة للبقايا واللقى الأثرية المتعلقة بالأدوات المستعملة في التدخين، أهم وسيلة لإماطة اللثام عن بعض الجوانب المتعلقة بهذا الموضوع، وذلك من خلال دراسة عينة من بعض الغلايين التي اكتشفت وتم العثورعليها، والتي توضح بالملموس، كيف كان أسلافنا يتعاملون مع نبتة التبغ وكيف كانوا يدخنون. وقد قصدنا عمدا أن نطلق لفظ الغليون على هذه الأدوات لأننا لا نعرف بالضبط الأسماء التي كانت تسمى به في وقتها، والتي قد لا تكون بالضرورة هي نفس الأسماء المتداولة حاليا، والتي لا نتوفر على معلومات بشأن بداية تداولها في الوسط الشعبي المغربي ونقصد على الخصوص: السبسي الذي يدل على القناة الخشبية أو القصبية والمعدينة أحيانا، والشقف أي الغليون، والمطوي وهو كيس جلدي يضم السبسي والشقف معا. وإذا كنا تجنبنا إطلاق لفظ الشقف على الغليون، فلأننا لاحظنا أنه أكبر حجما من الشقف المتداول حاليا، فهو أقرب إلى الغليون الأوربي منه إلى الشقف.

يتعلق الأمر إذن، ببعض العينات من الغلايين الفخارية، التي سبق لنا العثور عليها خلال بعض أعمالنا الميدانية للتنقيب الأثري في مختلف مناطق المغرب، والتي يسعى هذا العمل المتواضع إلى التعريف بها وعرض عينات منها :

تتنوع مصادرنا الميدانية حول الغلايين الفخارية بحسب المناطق التي وصلتنا منها ، كما يلي :

- مدينة تطوان ، مقبرة باب الجياف: 32 نموذجا .
- جبل كرت ، مواقع كرت الأثرية، 3 نماذج.
- الشاوية (بلاد تامسنا سابقا) مواقع عين مكَون، وماغوس، وتامسنا: 5 نماذج.
- سجلماسة، المدينة الأثرية، مراسلة من الباحث الأثري رونالد ميسييك 5 نماذج .

ونسجل هنا أن كل الغلايين الفخارية المأخوذة من هذه المواقع، هي من بقايا القطع الفخارية التي قمت بجمعها فوق السطح، باستثناء غلايين موقع سجلماسة، فقد سجلت خلال الحفريات أي عثر عليها حسب الترتيب الفرشي.

وصف الغلايين الفخارية :

تقديم الشكل الهندسي العام للغلايين: يتكون الغليون عامة، أي كأداة كاملة للتدخين من عنصرين إثنين: القصبة والغليون.

القصبة عبارة عن قناة من القصب فعلا أو من الخشب، ولا ندري هل كانت في السابق طويلة تتجاوز 30سم، كغلايين الهنود الحمر، أو متوسطة الطول لا تتجاوز هذا المقياس، على شاكلة الغلايين الموجودة بالمغرب والتي تدعى" بالسبسي" وتطوى على شكل قناتين، أو الغلايين القصيرة مثل المتداولة حاليا أو ما تدعى **La pipe**.

الغليون : عبارة عن جسم واحد مقعر بانعراج، ويتشكل من عناصر نقترح لها الأسماء المدرجة في الشكل التالي المبين أسفله (شكل 1): ترتبط القصبة أو القناة بفوهة دائرية لا يتجاوز قطرها عامة ما بين 7ملم و10ملم، وذلك حسب قطر القناة التي تدخل فيها، ولا يتوفرداخل فوهة الغليون على أي تقنية لشد قناة القصبة إليها. يحيط بالفوهة من خارجها طوق أو تاج، وله وظيفتان، إحداها التزيين والزخرفة، والثانية ضبط بداية الغليون وتمييزه عن نهاية قناة القصبة. وتقع الفوهة والطوق على ساق مستقيمة لا يتعدى طولها عامة 2 سم إلى الانعراج الداخلي و ما بين 3,50سم إلى 5 سم إلى الانعراج الخارجي. يتشكل الانعراج نحو الداخل من تقعر على هيئة بطن أو غمد يستعمل لوضع نبات التبغ أو غيره وضغطه بالغمد، وقطره أوسع من باقي العناصر، ولا يتعدى 3،50سم . ويكون الغمد وارتفاعه نحو المدخنة قاعدة الغليون. أما المدخنة فتختلف ارتفاعاتها حسب الأشكال، ولا تتوفر فوهاتها على عناصر تميزها عن الارتفاع من القاعدة باستثناء أن قطرها أكبر من قطر فوهة القناة.

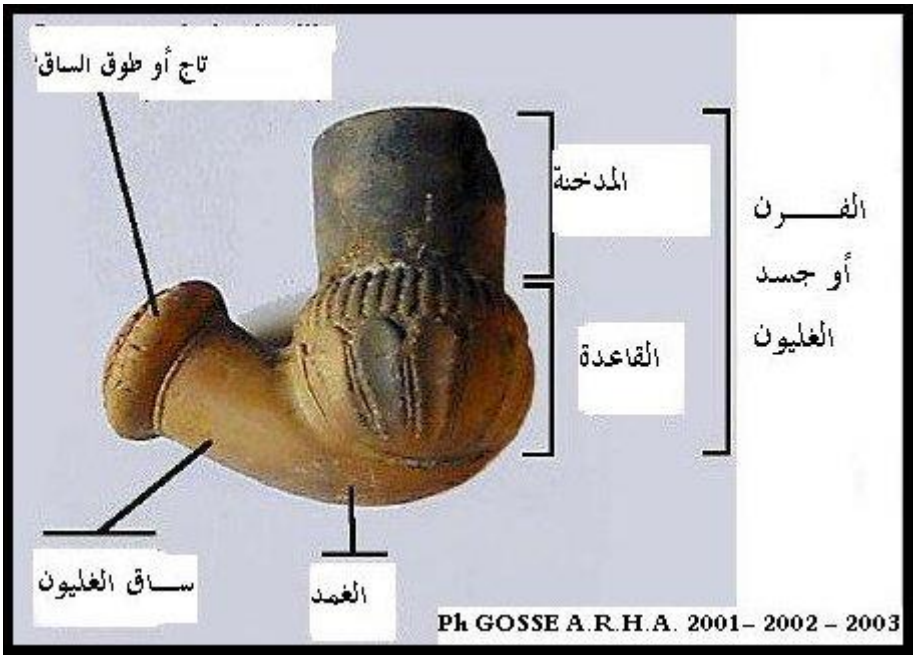

شكل 1 : تشريح الغليون

سمحت مادة الطين لصانع الغلايين بإنجاز زخارف هندسية متصلة، كخطوط ناتئة أو منقوشة، أو كعناصر مستقلة كالنجوم المطبوعة على السطح. وانصبت هذه الزخارف عامة على غمد الغليون وفوهة ساقه.

ينطبق هذا الوصف العام على كل الغلايين الفخارية التي عثرنا عليها خلال التنقيبات الأثرية، وتختلف عن بعضها البعض في أحجامها ، وأشكالها الهندسية ، وزخرفتها وألوانها التي تعود إلى طبيعة العجينة الطينية. ونشير هنا إلى أن الاختلاف الأساسي بينها هو حضور الرماد أو النبات المحروق بداخلها أو غيابه . وقد حاولنا في أكثر من مرة الاستعانة ببعض المتخصصين في المختبرات الكيميائية في محاولة منا للتعرف على أصل النبات المحروق، هل هو نباتات طبية أو نبات التبغ أو الحشيش أو غيره، إلا أنهم أكدوا لنا استحالة التوصل إلى ذلك .

صورة رقم 1 : نماذج من مجموعة غلايين باب الجياف بتطوان، الوجه 1

صورة رقم 2 : نفس النماذج ، الوجه 2

إن أول سؤال تبادر إلى ذهننا منذ بداية تعاملنا مع إشكالية الغليون والدخان والتدخين، هو تأريخ هذه النماذج الفخارية الموجودة بالمغرب، وهل هي من صنع مغربي أو من إنتاج أجنبي، وهوسؤال تصعب الإجابة عليه علميا، لأن الأمر يتطلب بحثا مخبريا وميدانيا. إلا أن هذا لم يمنعنا من اللجوء إلى الرواية الشفوية، فقمنا باستفسار بعض حرفيي الفخار والخزف من صناع وتجار، فأكدوا لنا أنهم لم يروا هذه النماذج من قبل، وأن ما تعلموه في مجال صنع الشقوف هو تلك الصغيرة المتداولة والأكبر منها قليلا ولكن ليس من نفس الحجم والشكل :

صورة رقم 3 : باب الجياف – تطوان ، صورة مفصلة لغليونين من الحجم الكبير

أما بالنسبة لتأريخ الغلايين، فقد اعتمدنا على طريقة المقارنة مع نماذج خارج المغرب، تم اعتماد طرق مختلفة في تأريخها وتحديد عصرها، وتوصلنا من خلال ذلك إلى أربع فرضيات نقدمها كما يلي:

أولا : الفترة ما قبل الإسلامية، يتوفر المتحف الوطني لسيرتا بالجزائر على بعض النماذج من الغلايين التي تعود إلى العهد الروماني، وقد توصلت بصور

لستة نماذج منها [7] معروضة بقاعة البقايا الأثرية الرومانية بالمتحف، وأكدت المعلومات المقدمة للزوار أن هذه المواد كانت تستعمل للتدخين في العصر الروماني :

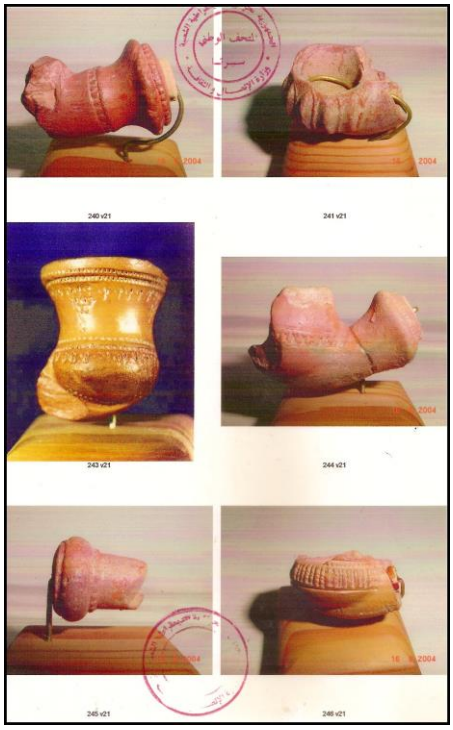

صورة رقم 4 : غلايين المتحف الوطني بسيرتا بالجزائر

ثانيا : الفترة الإسلامية القرن 6 هـ/ 12 م ، قام مختبر "البللوريات" التابع لشعبة الفيزياء بكلية العلوم 3 بمدينة بوردو الفرنسية قبل سنة 1981، بتأريخ ثلاثة نماذج من الغلايين المكتشفة بموقع "تاكداوست " الأثري شمال أودغست بدولة

[7] - كان الأستاذ صابر محمد ، أستاذ الكيمياء ، من جامعة أبي شعيب الدكالي في زيارة علمية للجزائر وجلب لي معه ملفا حول المتحف الوطني بسيرتا فله جزيل الشكر على هذا العمل.حاولت الاتصال بالمتحف وبأسماء المسؤولين هناك لتزيدي بمعلومات إضافية ومكتوبة عن الغلايين المعروضة أو المتوفرة لديهم ولكن دون جدوى وبدون أي جواب.

موريطانيا الحالية، اعتمادا على تطبيق نظرية تأريخ الفخار بالإشعاع الحراري الضوئي [8]، وأجرى عمليات التأريخ خبراء فيزيائيون تحت إشراف البروفسور ماكس شفيرر[9] ، وعلى ضوئها تم تحديد تاريخ صناعة العينات في نهاية القرن 11م وبداية القرن 12م، وهي الفترة التي توافق نهاية حكم الدولة المرابطية وبداية حكم الدولة الموحدية. وقد أثارت هذه النتائج تساؤلات كثيرة حول علاقة التأريخ المذكور بالدولتين، وحول وجود إشارات في النصوص التاريخية المعاصرة للفترة، أو سكوتها عن التدخين أو تقنيات شم الدخان، ونوع النباتات التي كان المدخنون يستعملونها خلال الفترة ... إلخ.

ثالثا: العصر الحديث بالمغرب، سبق أن أشرنا أعلاه إلى ما كتبه المرحوم محمد حجي في كتابه عن تاريخ الدخان بالمغرب، وقد عرضت عليه قيد حياته الغلايين، ومعطيات مختبر بوردو، وتبين له من خلال بحثه التاريخي أن تاريخ الغلايين لا يمكن أن يعود إلى ما قبل القرن السادس عشر الميلادي، وأن أي اكتشاف في الموضوع سيكون "ثورة تاريخية"، وعبر عن استعداده لتعميق البحث قصد الوصول إلى نتائج تجيب على تساؤلات الباحثين حول تاريخ دخول الدخان إلى المغرب والدول العربية والإسلامية، ولكن المنية وافته دون إتمام أبحاثنا في هذا الموضوع.

رابعا : فترة القرنين السابع عشر والثامن عشر، نشر فيلب كوس على موقعه الخاص بالأنترنت نتائج استباراته الأثرية البحرية بميناء Pomégues التابع لمدينة مارسيليا الفرنسية، ودراسته لمجموعة كبيرة من الغلايين التي أطلق عليها وعلى مقاله اسم :" غلايين الإمبراطورية العثمانية"[10] وتضمنت تفاصيل وصورا مهمة قمت بمقارنتها على مستوى الأشكال والمقاييس والزخارف، مع تلك التي عثرنا عليها بالمغرب، فتبين لنا تطابقها معها. وتنتسب 60 % من أصول الغلايين

---

[8] - الإشعاع الحراري الضوئي La thermoluminescence آلة إيليكترونية تزود بالذرات غير المحروقة من عينة الفخار وتعطى لها نفس درجة حرارة الذرات المحروقة وبعمليات رياضية وفيزيائية يعرف تاريخ صناعة الفخار.

[9] - Max schvoerer :Méthodes de datation absolue en préhistoire et geologie du quaternaire, document de travail dactylographié ,laboratoire de Cristallographie et de Minéralogie, Bordeaux III ,1969.

Quantin Christine :Datation et caractérisation par méthodes physiques en archéologie, Bordeaux III,1979.

[10] - http://pagesperso-orange.fr/philippe.gosse/Otto

المدروسة، إلى الإمبراطورية العثمانية والباقي موزعة على دول إيطاليا وهولندا وبريطانيا وفرنسا. وأكد فيليب كوس أن كل المعثورات الأثرية تعود إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر، وأن أصلها هو السفن العثمانية التي كانت ترسو بالميناء الفرنسي، كما اعتمدت الدراسة على مجموعة من الوثائق النصية، مثل سجلات دخول السفن وخروجها، وأصولها وعدد بحارتها ، فأكدت معطيات المعثورات الأثرية .

صورة رقم 5 : نماذج من مجموعة فيليب كوس

يتبين مما سبق أن جل الخلاصات تتعارض فيما بينها، على الرغم من اعتمادها على أسس علمية، باستثناء نماذج سيرتا التي لا نعرف المبررات العلمية التي تم الارتكاز عليها من أجل نسبتها إلى الفترة الرومانية. والجدير بالذكر أن استعمال الإشعاع الحراري الضوئي لتحديد تاريخ العينات، مسألة معمول بها، ولم تقتصر فقط على عينات الغلايين التي تمت دراستها في تاكدوست الموريطانية، وتمت تجربتها بنجاح على عينات فخارية من أدوات منزلية تعود إلى عصور مختلفة، وهي متداولة لدى الباحثين في مختلف الدول الغربية، وعلى نطاق واسع، لذلك فنسبة الغلايين إلى نهاية الفترة المرابطية وبداية الموحدية، لا يرقى إليها الشك، ولم نقف في حينه على أي خطأ في مراحل إنجاز الاختبار الكيميائية والفيزيائية[11]. وإذا كنا لا نقلل من فرضية انتماء الغلايين إلى الفترة الحديثة، اعتمادا على حنكة الأستاذ محمد حجي وخبرته بتاريخ الفترة الحديثة ونصوصها، فإنه هو نفسه، لم ينف

[11] - أرسلنا أربعة أجزاء مكسورة ،لتزويدنا بتاريخ صناعتها وحرقها، إلى جامعة مدريد المستقلة حيث تتوفر على آلات للتأريخ بواسطة الإشعاع الحراري الضوئي ولا زلنا ننتظر الجواب إلى يومنا هذا .

تماما إمكانية انتسابها إلى فترة سابقة ، بدليل ترحيبه بفكرة تعميق البحث وربما – إجراء اختبارات جديدة – لتأكيده.

وأخيرا يبقى التأريخ للغلايين بالفترة الواقعة ما بين القرنين السابع عشر والثامن عشر، ولعله الأقرب إلى الحقيقة، فهو يؤكد ما ذكره محمد حجي، ويجب التذكير بأن أكبر عدد من الغلايين بالمغرب وجدت بمدينة تطوان القريبة للساحل ولأهم الموانئ المتوسطية خلال هذه الفترة: سبتة وطنجة، وهي لا تخرج - عند المقارنة- عن المجموعة المدروسة من طرف فيليب كوس، ولهذا نرجح أن صناعة غلايين المغرب لم تكن محلية بل مستوردة، وربما يجب انتظار القرن التاسع عشر للوقوف على غلايين مغربية، تنحو في أحجامها نحو الصغر وتتسم في صناعتها بجودة أقل.

وأعتقد أن هذا الموضوع سيظل مفتوحا بتساؤلاته وحيرته، وأن الحسم فيه سيستغرق وقتا طويلا إذا تم، ولعل أفضل ما نختم به هذا المقال هو الحيرة التي عبر عنها الكاتب **Sébastien NICOLAS** في مقاله " تاريخ الغليون "[12] حيث يقول: "إلى أي تاريخ يعود الغليون الأول؟ سيكون محظوظا جدا من سيجيب عن هذا السؤال. نجد آثار وجود الغليون في كل القارات، ووجدت أجزاء الغليون المصنوع من العظام والمؤرخة منذ آلاف السنين. ونؤكد هنا أن الغلايين لم تكن تستعمل لتدخين الدخان بأوربا إلا انطلاقا من سنة 1560".

[12] - www.pipes-tabacs.com